حول التربية على العنصرية وقتل الأطفال

نوريت بيليد الحنان [1]

أهدي هذه الكلمات إلى أمهات الأطفال القتلى ، تلك الأمهات اللاتي لا زلن تنجبن ، وتبنين أسراً ، تلك الأمهات اللاتي تسارعن إلى تحضير أكلة خفيفة وهن ترين الجارفات تقترب لكي تهدم منازلهن ؛ تلك الأمهات التي تصحبن يومياً أبناءهن إلى المدرسة عبر كيلومترات من الدمار والأوساخ ، أمام البنادق المشهرة بيد جنود فاقدي الإحساس ، تلك الأمهات التي تعلمن أن هؤلاء الجنود ، قتلة أبنائهن ، لن يمثلوا أبداً أمام القضاء ، و أنهم حتى ولو سيقوا إلى العدالة ، لن يحكم عليهم بالإدانة ، لأن قتل أطفال فلسطينيين لا يعتبر جريمة بالنسبة لدولة إسرائيل اليهودية والديمقراطية .

وفي النهاية أود إهداء هذه الكلمات إلى روح الكاتب والشاعر ، الأستاذ عزت الغزاوي الذي تشرفت باقتسام جائزة ساخاروف لحقوق الإنسان وحرية التفكير ، معه . قبيل موته مهانة وامتعاضاً ، ببضع أشهر ، كتب لي بخصوص الجنود الذين اقتحموا بيته ليلاً ، مكسرين الأثاث والنوافذ ، وملوثين كل شيء ، ومرعبين الأطفال ، قائلاً : "يبدو لي أنهم يريدون إسكات صوتي" . وطلب مني عزت الغزاوي الاتصال بوزارة الخارجية لكي أطلب منهم تصحيح هذا الخطأ . غير أن قلبه كان يدرك الحقيقة وقد توقف خفقانه بعد ذلك بوقت وجيز .

إن هذه الوحشية التي لا تعبر عنها الكلمات ، وهذه الطريقة المنظمة والمدروسة لمعاملة الناس بقسوة ، والتي تساهم اليوم أحسن العقول اليهودية للتخطيط لها وتحسينها ، إنها لم تولد من فراغ . إنها ثمرة تربية أساسية مكثفة وعامة .

يربى أطفال إسرائيل من خلال خطاب عنصري لا مساومة فيه ؛ خطاب عنصري لا يقف عند حد نقط التفتيش ، بل يحكم كل العلاقات الإنسانية في هذا البلد .

(1) Nourit Peled-Elhanan – ترجمه من العبرية إلى الفرنسية ميشيل جيس Michel Ghys ونقله من الفرنسية إلى العربية أ . رشيد أبو ثور

يربى أطفال إسرائيل على اعتبار الشر ، الذي سينقلونه فور إكمال دراستهم ، من التنظير إلى التطبيق ، أمراً يفرضه عليهم الواقع الذي سيحيون فيه .

يربى أطفال إسرائيل على اعتبار القرارات الدولية ، والقوانين ، والتعاليم الإنسانية والربانية ، كلمات فارغة ، لا تنطبق علينا . فلا يعلم أطفال إسرائيل بوجود الاحتلال ، حيث لا حديث معهم إلا عن "إعمار واستيطان" . أما الأراضي المحتلة ، فتعرض في خرائط السكان في كتب الجغرافيا ، كجزء من إسرائيل ، أو تترك أماكنها بيضاء ، كمناطق لا توجد عنها معطيات ، أي كمناطق غير مأهولة .

ولا وجود في أي كتاب للجغرافية خرائط تبين حدود إسرائيل ، لأن أطفال إسرائيل يتعلمون بأن كياننا الجغرافي الحقيقي هو الأرض الأسطورية المسماة بأرض إسرائيل ، و أن دولة إسرائيل الحالية ليست إلا وطناً صغيراً مؤقتا .

ويتعلم أطفال إسرائيل أنه يوجد في بلادهم يهود وغير يهود : قطاع يهودي وقطاع غير يهودي ، وفلاحة يهودية وفلاحة غير يهودية ، ومدن يهودية ومدن غير يهودية . فمن هم غير اليهود هؤلاء ؟ وماذا يفعلون ؟ ويشبهون من ؟ وهل هذا مهم ؟

عندما لا ينعت كل هؤلاء الآخرين المقيمين في البلاد ، بـــ"غير اليهود" ، يسمون بصفة عامة "عرباً" . فيمكننا أن نقرأ مثلاً في الصفحة ١٢ من كتاب "إسرائيل ، الإنسان والفضاء" (نشر مركز التكنولوجيا والتربية) :

{ الشعب العربي (..) داخل هذه المجموعة البشرية ، يوجد مؤمنون من مختلف الديانات ومجموعات عرقية مختلفة : المسلمون والمسيحيون والدروز والبدو والشركس ؛ وبما أن أغلبهم عرباً ، فسنطلق على هذه المجموعة ، على امتداد هذا الكتاب ، اسم "العرب" أو "السكان العرب" }

وفي نفس الكتاب ، يسمى الفلسطينيون "العمال الأجانب" ؛ أما عن ظروف عيشهم المخجلة ، فيقول الكتاب بأنها "من مميزات الدول المتقدمة"

ولا يتحدث في أي كتاب مدرسي ، عن الفلسطينيين ، سواء منهم من يعيش في الأراضي المحتلة أو من يحمل الجنسية الإسرائيلية ، باعتبارهم أناس عصريين ، ومدنيين ، ومنشغلين في أعمال منتجة ومجيدة ، أو في أعمال إثنية إيجابية . ولا يمثلون إلا بصور نمطية ، حيث يتم تمثيل العرب مواطني إسرائيل ، الذين يسمون بهذا التسمية المهينة ،

"عرب إسرائيل" ، إما برسوم كاريكاتورية عنصرية على شاكلة عربي ألف ليلة وليلة ، بشاربه وكوفيته وحذائه البهلواني ، وناقته تجر أقدامها خلفه ، (كما ورد في كتاب جغرافية أرض إسرائيل ، ٢٠٠٢) ، أو من خلال صورة عنصرية خاصة بتمثيل العالم الثالث في الغرب ـــ أي على شكل فلاح ما قبل عصر التكنولوجيا ، وهو يسير خلف محراث عتيق يجره زوج من الثيران (الناس والفضاء ١٩٩٨) . أما الفلسطينيون القاطنون في "المناطق" ، فيمثلون بصورة إرهابيين ملثمين (القرن العشرون/الأزمنة المعاصرة ٢) ، أو بصور جحافل من اللاجئين يمشون حفاة ، لا ندري من أين ولا إلى أين ، وهم يحملون حقائبهم على رؤوسهم (سفر نحو الماضي ، ٢٠٠١) . أما النعوت التي توصف بها هذه الصور النمطية ، فهي : "الكابوس الديموغرافي" و"التهديد الأمني" ، و"عالة على التقدم" ، أو "المشكل الذي يحتاج إلى حل" .

ورغم أن المناطق الفلسطينية غير مبينة على الخرائط ، فإن السلطة الفلسطينية تعتبر عدوا . ففي كتاب "جغرافية أرض إسرائيل" لسنة ٢٠٠٢ ، يوجد مثلاً جزءاً من فصل ، يحمل عنوان "السلطة الفلسطينية تسرق الماء من إسرائيل ، في رام الله " .

وأفظع من هذا ، أن التعبير عن العنصرية يوجد حتى في الكتب المشهورة بعدم عنصريتها ، والتي ربما كانت تجهل ما تحمله من خطاب عنصري . فهناك كتب توصف من طرف الباحثين بأنها "تقدمية ، وجريئة ومناسبة سياسيا" ، وبأنها تبحث عن "الحقيقة التاريخية" وعن السلام . غير أننا نجد مثلا في الصفحة ٢٤٤ من كتاب "القرن العشرون لإيلي برنافي Elie Barnavi" :

"الفصل ٣٢ : الفلسطينيون ، من لاجئين إلى أمة . يعالج هذا الفصل تطور المشكل الفلسطيني (...) والمواقف داخل الجمهور الإسرائيلي ، حيال هذا المشكل ، وحيال طبيعة حله " .

إذا قيل بأن هذا العنوان جاء من مكان آخر ، وأن له أكثر من ٦٠ سنة ، وأنه ، بدلاً من المشكل الفلسطيني ، يتعلق الأمر بـــ" المشكل اليهودي" فلن أفاجأ .

فكيف نشأ هذا المشكل ؟

ورد في الصفحة ٢٣٨ من كتاب "الأزمنة العصرية ٢" لإيلي برنافيElie Barnavi وإيال نافيه Eyal Naveh الشرح الآتي : { ... لقد نضج "المشكل الفلسطيني في ظروف الفقر والبطالة والحرمان التي كان يكابدها اللاجئون في مخيماتهم البئيسة } .

ماذا ترتب عن هذا المشكل ؟ الجواب في الصفحة ٢٣٩ : " (....) يسمم المشكل الفلسطيني منذ أكثر من جيل ، العلاقات بين إسرائيل والعالم العربي والجماعة الدولية " .

وتقوم الهوية الفلسطينية ، بالنسبة لهذا الكتاب ، على "حلم العودة إلى أرض إسرائيل" ، وليس إلى فلسطين (صفحة ٢٣٨ : أسس الفلسطينيون هويتهم على حلم العودة إلى أرض إسرائيل) .

كيف نشأت الروح الوطنية الفلسطينية ؟

يقول كتاب "الأزمنة العصرية ٢" : "لقد صنع عبر الزمن ، الاستلاب والكراهية ، والترويج وآمال العودة والانتقام ، من لاجئين أمة (..)" .

يوضح الكتاب كذلك أن وجود الفلسطينيين بيننا قابل أن "يحول الحلم الصهيوني إلى كابوس على شاكلة ما عرفته أفريقيا الجنوبية" (القرن العشرون ص ٢٤٩) . ولقد كتب هذا الكلام عقب فوز نلسون مانديلا ، ولا زال الكتاب يماثل بين يهود دولة إسرائيل والبيض في جنوب أفريقيا الذين يمثل السكان الأصليون ، بالنسبة لهم ، كابوسا .

ولاغتيال الفلسطينيين من طرف الإسرائيليين ، على الدوام مضاعفات إيجابية ، حسب الكتب المدرسية .

ورد في الصفحة ٢٢٨ من كتاب "الأزمنة العصرية" لإيلي بارنفي Elie Barnavi وإيلات نفيه Eyal Naveh : "إن مذبحة دير ياسين ، لم تدشن في الواقع الفرار الجماعي للعرب من البلاد ، والذي كان قد بدأ قبل ذلك ؛ غير أنها سرّعته" .

وتجدر الإشارة إلى أن "تدشن" كلمة احتفالية . وورد بعد ذلك مباشرة ، في الصفحة ٢٣٠ : { إن فرار العرب قد حل على الأقل جزئياً ، مشكلاً ديموغرافياً رهيباً ، لدرجة أن رجلاً معتدلاً مثل حاييم وايزمان ، تحدث بهذا الخصوص عن "معجزة" } .

وهكذا يتعلم أطفال إسرائيل بأن ما تصبو إليه الصهيونية هو بلد بدون عرب ؛ فيتعلمون بأن قتل الفلسطينيين ، وتدمير أراضيهم ، وقتل أولادهم ليس بجريمة ، بل العالم المتنور قاطبة ، يخشى على العكس من الرحم المسلم ، وكل حزب في السلطة يريد النجاح في الانتخابات ، وتقديم البرهان على التزامه بالصهيونية ، أو الديمقراطية ، أو التقدم ، يفاجئ الناس ، ليلة الانتخابات بعملية تفاخرية بقتل للفلسطينيين .

وهذا رغم ما تعج به المدارس اليهودية في دولة إسرائيل من شعارات تقول بـــ"حب الآخر وقبول من هو مختلف" . ويبدو أن الآخر ، ذلك المختلف ، لا يتمثل في الناس المقيمين حيث نعيش .

إن أطفال إسرائيل يعرفون عن أوروبا – موطن النـــزوات ومثل زعماء البلاد – أكثر مما يعرفون عن الشرق الأدنى حيث يعيشون ، والذي يمثل البلاد الأصلية بالنسبة لأكثر من نصف سكان إسرائيل . يربى الأطفال اليهود في دولة إسرائيل ، على قيم إنسانية ، لا يروا لها تجسيداً في أي مكان حولهم . والعكس هو الصحيح ، حيث يشاهدون في كل مكان انتهاك هذه الحقوق . ولقد عبرت طالبة ، تعرف نفسها بأنها "من سكان تل أبيب ، وأنها محظوظة ومن الطبقة المتوسطة" عن هذا الارتباك ، وعن استغرابها من كون "جنود شعبي الذين يحموني ويريدون أمني" يعاملون بقسوة أب فلسطيني وولده ، دون أن أدنى وخزة ضمير (Haaretz, ٢٠٠٦/٣/١٣م) .

في هذا السياق ، تترجم عبارة "جنود شعبي الذين يحموني ويريدون أمني" أكثر من أي شيء آخر ، أيديولوجية العنصريين ، حيث تفسر معاملة الآخر بقسوة بأنها دفاع عن أنفسنا . فهذا العنف الممارس على الآخر ، هو الذي يحدد هويتنا ، وينشئ تضامناً : فبإساءة معاملتنا لهم ، نعبر على أننا شعب موحد ، ومتفق ، وكل منا مسؤول عن الآخر .

من هم هؤلاء الذين نسبتهم إلى "شعبي" ؟ فكلمة "شعب" ، مثل كلمة "نحن" جد مشحونة ؛ إنها كلمة تقدم ، وكأنها لا تترك خياراً ، وكأنها قدر ، وكأنها من صنع الطبيعة . لقد جعلتنا الموت ، أنا وعائلتي نتعمق في معنى هذه الكلمة . عندما سألتني صحفية ، قبل بضع سنين ، كيف يمكنني أن أتقبل المواساة

من الجهة الأخرى ، أجبتها مباشرة بأنني غير مستعدة لقبول كلمة مواساة من الجهة الأخرى ؛ والدليل أنه عندما جاء إيهود أولمرت ، محافظ القدس ليقدم لي تعازيه ، خرجت من الغرفة ورفضت مصافحته أو الحديث إليه . فبالنسبة لي ، هو ومن هم على شاكلته ، من يمثل الجهة الأخرى .

وهذا لأن "نحن" التي أتبناها لا تتحدد بمنطلقات وطنية أو عنصرية . فـ"نحن" بالنسبة لي تتكون من كل الذين هم على استعداد للكفاح من أجل حماية الحياة وإنقاذ الأطفال من الموت ؛ تتكون من الآباء والأمهات الذين لا يرون في قتل أبناء الآخرين عزاء لهم .

من الواضح أن هذا الفريق ، يضم في الحالة الراهنة ، من الفلسطينيين أكثر مما يضم من اليهود ، لأن الفلسطينيين هم الذي يحاولون ما استطاعوا ، وبقوة غريبة ومثيرة للإعجاب ، مواصلة الحياة في ظروف جهنمية ، يفرضها عليهم نظام الاحتلال والديمقراطية . غير أننا ، نحن الضحايا اليهود للاحتلال ، ونحن الذين نسعى إلى الانعتاق من ثقافة القوة والدمار في حرب الحضارات التي تدور رحاها في هذه الربوع ، لنا مكان هنا كذلك .

إن ولدي إيليك Elik عضو في حركة جديدة ، ازدهرت تحت عنون " مقاتلون من أجل السلام" ، والتي ينتمي إليها إسرائيليون وفلسطينيون كانوا جنوداً مقاتلين ، وقرروا إنشاء حركة للمقاومة السلمية ضد الاحتلال . وعائلتي عضو في المنتدى من أجل السلام للعائلات الفلسطينية والإسرائيلية المكلومة بمقتل أحبائها . وولدي كي Guy يمارس المسرح مع أصدقاء فلسطينيين وإسرائيليين ، حيث ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم أناس يعيشون على أرض واحدة ، ويعملون على التحرر من أسلوب حياة محدد سلفاً ، يتميز بسوء المعاملة والعنصرية ، والذي يرفضونه . أما ولدي الصغير أيغال Yiga ، فيشارك كل سنة ، في مخيم صيفي للسلام ، يلتقي فيه أطفال يهود وأطفال فلسطينيون ، ليلعبوا مع بعضهم البعض ، وينسجوا العلاقات المتينة التي تستمر طول السنة . فهؤلاء الأطفال هم الذين يشكلون "نحن" بالنسبة لولدي .

وهذا لأننا نشكل جزءاً من السكان القاطنين في هذه الربوع ، ولأننا نعتقد أن هذه الأرض تعود لسكانها ، وليس إلى أناس يعيشون في أوروبا أو في أمريكا . ونعتقد أنه يستحيل الحياة بسلام ، دون العيش في هذه الأماكن نفسها ، ومع سكانها وأن أخوة حقيقية لا تقوم على محددات قومية وعنصرية ، بل على حياة مشتركة في مكان محدد ، وفي مشهد محدد ، وفي مواجهة مشتركة للتحديات . والذي لا يتجاوز حدود العرق والدين ، ولا يندمج مع أهل البلد الذي ولد فيه ، ليس بإنسان سلام . وللأسف ، يوجد هنا كثيرون ممن يقولون بأنهم أناس سلام ، غير أنهم عندما يرون مواطنيهم مسجونين في غيتوهات ghettos ومعازل ، لا تهدف إلا للتجويع حتى الموت ، لا يحتجون حتى ، بل ويرسلون أبناءهم ليعملوا في جيش الاحتلال ، ويقومون بالحراسة على جدران الغيتو ، وعلى أبوابه .

إنني لست سياسية ، غير أنه من الواضح بالنسبة لي أن رجال السياسة اليوم ، هم طلبة البارحة ، و أن سياسيي الغد هم طلبة اليوم . ولهذا ، أقدّر أنه يجب على من يرفع شعار السلام والمساواة ، أن يهتم بالتربية ويبحث فيها وينقدها ، ويحتج على نشر العنصرية في الخطاب التربوي والخطاب الاجتماعي ، ويقترح قوانين ، أو يعيد تفعيل قوانين مناهضة للتعليم العنصري ، ويقيم أطر بديلة حيث تدرس معرفة الواقع الآخر ، معرفة عميقة ، تلغي كل إمكانية الاقتتال . ويجب أن يضع هذا التعليم أمام الأنظار ، صوراً لبنات صغار ، ملقاة على الأرض بلباسهن المدرسي ، وسط الأوساخ والدم والغبار ، وجسدهن ممزق بالرصاص الذي أطلق عليهن حسب الطرق المعمول بها ؛ ثم مواصلة يوماً بعد يوم ، طرح سؤال أنا أخماتوفا Anna Akhmatova التي فقدت بدورها ولدها في نظام قاتل : "لماذا يشق هذا الأخدود من الدم وردة وجنتك ؟ "

زوروا مجلة الرائد بحلتها الجديدة وخدماتها المتميزة على :
http://www.iid-alraid.com